

Muslims and Mongols, causes of defeat and factors of victor

د. طيبي عبد العالي

دكتوراه في تاريخ العصور الوسطى

البريد الإلكتروني: taibi.abdelali@yahoo.fr

المخلص

أعالج في هذه المقالة الفترة التي حكم فيها المغول بلاد المسلمين والأهوال التي عاشوها بفعل الدمار والخراب الذي خلفه هذا الغزو، ورغم أن الأمة الإسلامية قد مرت بفترات صعبة في تاريخها لكنها كانت بمثابة السحابة العابرة التي استطاعت تجاوزها واستخلاص العبر منها، لكن الفترة التي سيطر فيها المغول على بلاد المسلمين كانت من سوء أن البعض اعتبر نهاية الإسلام فيها أمر لا مفر منه، بفعل ما رأوه من إفساد في الأرض ودمار للممتلكات، وحرق للمكتبات والمدارس والمعاهد حتى قضى على الآثار الإسلامية جلها، وصارت بغداد من كثرة ما سال فيها من الدماء جراء قتل للمسلمين حمراء بلون الدم، وأنهارها من كثرة ما ألقى فيها من الكتب التي أحرقت سوداء بفعل مدادها، كل هذا والمسلمون في فرقة وتناحر فيما بينهم، هذا بسبب مذهبه وهذا بسبب عصبية وهذا بسبب سلطته، وهكذا دواليك حتى كادت الأمة تنتهي لولا أن قدر الله لها من يحمي حماها ويرفع من هامتها ويذود عنها لتعود إلى سابق عهدها أمة تقود ولا تقاد .

الكلمات المفتاحية: المغول؛ التتار؛ المسلمون؛ بغداد؛ الخلافة

Abstract:

In this article I deal with the period in which the Mongols ruled the Muslim countries and the horrors that they lived through due to the devastation caused by this invasion of corruption in the land and destruction of property, and burning of libraries, schools and institutes until the elimination of the Islamic monuments, most of them because of the division of Muslims, and then how Muslims managed after they united to turn defeat into victory and return to this nation its glory

Keywords: Mongols ; Tatars ; Muslims ; Baghdad ; the Caliphate

المقدمة

يعتبر المغول من الشعوب البربرية التي استوطنت البراري والقفار في آسيا الوسطى، وهم يشكلون في الغالب قبائل متناثرة تمتهن الرعي والصيد ولا دين لهم، عبدوا الشمس أحيانا وعبدوا بعض الآلهة أحيانا أخرى وبقوا بلا دين أحيانا كثيرة، إلى أن وحدهم قائدهم جنكيز خان (603-624هـ) (1206-1226م) ووضع لهم مبادئ وضوابط، شكلت في غالبيتها وصايا وقوانين يدينون بها ويعملون بمقتضاها، حتى صار جنكيز هذا بمثابة النبي لقومه يرجعون إليه في كل أمورهم.

وعندما قويت شوكتهم بفعل الغارات والتحرشات التي كانوا ينفذونها ضد جيرانهم، انطلقوا كالسيل الجارف تحدهم الرغبة في التوسع فظهرت أسطورتهم المتمثلة في الشعب الذي لا يقهر ومن بعدها الجيش الذي يهزم، وصار الناس يسلمون بذلك ولا يستطيعون بل لا يقوون على ذكرهم بالسوء، لما كانوا يمثلونه من قوة وجبروت أخافوا به العدو قبل الصديق، وفي الوقت الذي توحد فيه المغول وأصبحوا قوة يحسب لها ألف حساب كان المسلمون من السوء ما جعلهم يتناحرون فيما بينهم، فسادت بينهم الفرقة وعمّ الضعف وكثرت الفتن والاضطرابات، وانقسمت الدولة الواحدة إلى كيانات صغيرة سهل على العدو الانتفاض عليها وضمها إليه.

ورغم وجود دول كان لها من القوة والمنعة ما يجعل الأمة في منأى عن الخطر الذي كان يحرق بها والتي تمثلت في العباسيين في العراق وما جاوره و الدولة الخوارزمية بإيران وأجزاء من بلاد الهند والأيوبيون بالشام والمماليك بمصر، إلا أن عدم توحدهم سهل على المغول الانفراد بهم الواحد تلو الآخر حتى كاد أن يقضي عليهم جميعا.

الإشكالية

إن الدارس لتاريخ الدولة العباسية في نهاية عهدها ليجد في نفسه حيرة من المآل الذي وصلت إليه بعدما كانت دولة قوية مترامية الأطراف يهابها كل جيرانها ويُحسب لها ألف حساب حتى أضحت في مرمى وأطماع الجميع، ومن هذا المنطلق نطرح الإشكال التالي :

ما هي الأسباب التي أدت إلى ضعف الدولة العباسية؟

وكيف للمغول أن يغزوا دولة بحجم الخلافة العباسية وما هي العوامل التي ساعدته في ذلك؟ وكيف استطاع المسلمون أن ينهضوا من جديد ويوقفوا هذا الزحف ويعيدوا للأمة مجدها وقوتها.

وللإجابة على هذه التساؤلات سأعالج هذا الموضوع من خلال المحاور التالية:

1. الدول التي دخلت في حرب مع المغول:

الخلافة العباسية 132-656 هـ: كانت في آخر أيامها حيث بدا عليها الضعف وعدم القدرة على تسيير البلاد، ولا السيطرة عليه بفعل نفوذ القوى الخارجية التي اعتمدت عليها في تسيير أمورها والتي تدخلت لاحقا في كل صغيرة وكبيرة وأصبح نفوذها يفوق نفوذ الخليفة نفسه، وبذلك شكلت هذه المجموعات خطرا على وجود الدولة ككل بسبب كثرة أتباعها الذين ينتمون إليها بفعل المذهب أو العرق أو العصبية أو السلطة، فظهرت الفتن والاضطرابات التي شتتت ما بقي من نفوذ بيد العباسيين.

الدولة الخوارزمية 470 - 628 هـ : التي تنسب إلى أنو شتكين الذي كان مملوكا تركيا لأحد الأمراء السلاجقة بخرسان وقد قربته منه لما رأى فيه من بأس في حروبه وولاه خوارزم، التي حكمها حتى استقل بها، ثم بدأت ذريته من بعده في التوسع على حساب من كان له الفضل عليهم ، فاستولوا على بلاد ما وراء النهر ولاحقا على الدولة السلجوقية وقضوا عليها، ولما كبرت شوكتهم عمدوا إلى الاعتداء على كل من كان بجوارهم من الغوريين والقراخانيين الذين كانوا يمثلون الحد الفاصل بينهم وبين أعدائهم والسد المنيع لهم ضد أي تحرش من المغول ، وبعد أن حلت الدولة الخوارزمية محل الدولة السلجوقية راح زعمائها يتدخلون في أمور الخلافة العباسية وقد عزموا الاستيلاء عليها إلى أن كانت نهايتهم على أيديهم سنة 628هـ-1230م.

الأيوبيون في الشام والمماليك في مصر: كانا في صراع وجود جعل كل طرف يكد للآخر من أجل القضاء عليه والاستيلاء على ما بيده من الأرض، وبقي الطرفان ينازعان بعضهما البعض في أحلك الظروف التي مرت بها الأمة الإسلامية وسنأتي على ذكر ذلك لاحقا.

2. كيف دخل المغول لبلاد المسلمين

تعتبر حادثة التجار المغول الذين دخلوا بلاد خوارزم وتم قتلهم على يد الجنود بعد أن أمر خوارزم شاه بذلك من بين الأسباب الظاهرة لغزو المغول لبلاد المسلمين، الذين اتخذوا من ذلك ذريعة أعدت لها العدة وجُهزت لها الجيوش وتوجه بعدها جنكيز خان إلى بلاد فارس التي كانت تحت سيطرة الخوارزميين من أجل الانتقام منهم لما فعلوه بالتجار، وفي طريقهم دمر المغول كل شيء وقع تحت أيديهم.

د. طيبي عبد العالي / المسلمون والمغول أسباب الهزيمة وعوامل النصر

ولما علم خوارزم شاه ومن معه من القادة بقدومه قرروا أن ينتظروه داخل أسوار المدينة التي يعرفون كل خباياها في حين أن العدو يجهل ذلك وهو في حالة من الإعياء لا يستطيع معها الدفاع عن نفسه وبذلك يسهل قتاله ، وما إن وصل جيش جنكيز خان إلى المدينة حتى تفرق الجمع وفر كل من كان يدافع عنها باتجاه قبيلته، وعندها أحس خوارزم شاه بالخطأ الذي أوقع نفسه فيه حين أمر بقتل التجار ففر خارج المدينة حتى وصل إلى مكان يسمى القلعة فلقق به جنكيز خان هناك وقتله.

وبعد أن سقطت الدولة الخوارزمية بيد المغول بدأت بعض الفتن في الظهور بشمال البلاد التي كان الإسماعليون أو ما تعرف بفرقة بالحشاشين التي أسسها الحسن الصباح ببلاد فارس، والذين عملوا في بداية عهدهم، على بث الرعب والخوف والقتل في صفوف كل من لا يتفق معهم أو يعارضهم في الرأي، وقد استغل بعض حكام المسلمين من كل الطوائف هذه الفرقة في تنفيذ مآربهم وسلطوهم على منائئهم، ومن ذلك ما قام به السلاجقة حينما استعانوا بهم لقتل الخليفة العباسي المستنصر سنة 529هـ-1134م.

عمد المغول بقيادة هولاكو حفيد جنكيز خان إلى القضاء على هذه الفرقة التي تفرق أتباعها في البلاد التي كانت لا تزال تحت سيطرة المسلمين، وبذلك يكون المغول قد قضوا على كل منائئهم في الشرق ولم يبق لهم من شيء يحول بينهم وبين عاصمة الخلافة بغداد التي كان مصيرها مصير الدولة الخوارزمية بعد شهر من إخماد فتنة الإسماعليين.

بدأ غزو بغداد بعد أن أعد المغول لذلك كل إمكانياتهم وجهزوا أنفسهم لحصارها الذي لم يدم سوى شهر حتى أستسلم الخليفة العباسي المعتصم للمغول بعد أن قدم لهم من الهدايا ما جعله يظن بعفوهم عنه، ثم لحق به أولاده وأهل بيته وجمع كبير من حاشيته وبعض القادة والعلماء وتركوا بغداد تواجه مصيرها لوحدها، حيث عمل فيها المغول من السلب والنهب أربعين يوما أحرقت فيها الكتب ودُمرت البيوت وزُهِقت الأرواح ونُكل بالمستضعفين من أهل بغداد التي انتهت حكم العباسيين بها على يد المغول سنة 656هـ-1258م.

3. أسباب هزيمة المسلمين

ما من شك في أن المغول كانوا يمثلون القوة الضاربة في تلك الفترة ولم تكن هناك أي قوة لتردعهم، لكن الضعف الذي أصاب الأمة ممثلة في الخلافة العباسية التي لم تكن تسيطر على الكثير من البلاد المترامية الأطراف إلا بغداد وما جاورها، جعلها تحجم عن اتخاذ أي إجراء تحمي به نفسها،

د. طيبي عبد العالي / المسلمون والمغول أسباب الهزيمة وعوامل النصر

الأمر الذي جعلها تجسد فصلا من فصول الهزيمة. يقول ابن الأثير: ولم تكن أيدي العباسيين حاكمة على جميع البلاد كما كانت بنو أمية قاهرة لجميع البلاد والأقطار والأمصار، فإنه خرج عن بني العباس بلاد المغرب ... وأخذ من أيديهم بلاد خراسان وما وراء النهر وتداولها الملوك دولا بعد دول، حتى لم يبق للخليفة منهم إلا بغداد وبعض بلاد العراق، وذلك لضعف خلافتهم واشتغالهم بالشهوات وجمع الأموال.

هذا الضعف أطمع الدول التي خرجت من رحم الخلافة كالخوارزميين الذين كانوا يتربصون بالخلافة للقضاء عليها متحججين بدافع المذهبية التي اعتبرتهم مغتصبين للسلطة من العلويين آل البيت، وعليه يجب إرجاع الحق لأصحابه ، وقد بذلوا في ذلك الكثير فقد اعتمدوا على فتوى لبعض الفقهاء ضعاف الأنفس الذين أقرروا لهم بفعلهم هذا، ما ساعدهم في البحث عن أحد الأشراف والدعوة له في المنابر تحضيراً له من أجل الخلافة العلوية بعد إنهاء حكم العباسيين ببغداد.

ومع سوء الأحوال حول العاصمة بغداد عمد الخليفة العباسي إلى الاستتجاد بالمغول لدفع أذى الخوارزميين عنها ووقف زحفهم تجاهها ، هذا التناحر الذي أججته نار الفتنة الطائفية ساهم في إضعاف كل الأطراف لحساب العدو الذي زادت قوته وكبر نفوذه واستحوذ على ما بقي بيد المسلمين. لم تكن الصراعات المذهبية العامل الوحيد الذي ساعد المغول في احتلال بلاد المسلمين بل لعبت الخيانة التي نتجت عن الأحقاد المذهبية بين السنة والشيعة دوراً كبيراً في سقوط بغداد، ففي سنة 655هـ - 1257م أي سنة واحدة قبل سقوط الخلافة العباسية اشتد العداء بين أتباع المذهبين ودخلا في صدام كان من نتائجه أن الوزير مؤيد الدين ابن العلقمي والذي كان من الطائفة الشيعية دخل في صراع مع الوزير مجاهد الدين أيبك الروندار الصغير الذي كان يمثل الطائفة السنية فامتد الخلاف إلى أتباع الطائفتين، فجرى على أهل الشيعة من التتكيل والنهب والسلب وهتك الأعراض ما جعلهم يعزفون عن تقديم العون لإخوانهم في حربهم ضد المغول، بل إن ابن العلقمي هذا لحق به من العار ما جعله يكاذب التتار ويظهر لهم مكامن الضعف في الدولة، الأمر الذي استغله المغول وأقدموا على غزو بغداد التي لم يكن حكامها يقدرّون خطورة الموقف، ففي الوقت الذي كان فيه المغول يبيدون الدولة الخوارزمية كان الأمراء والحكام العباسيون يعيشون رغد العيش متناسين ومتجاهلين خطر المغول الذي لا يمكنهم صده بمفردهم، بل إن الخليفة احتّمى بما عنده من الجند في بغداد ولم يعر مدن البلاد الأخرى أي اهتمام أو حماية، لظنه بأنهم لن يتجرؤوا على القدوم إليه

د. طيبي عبد العالي / المسلمون والمغول أسباب الهزيمة وعوامل النصر

وسيكتفون بما في أيديهم حيث يقول: أنا بغداد تكفيني ولا يستكثرونها لي، إذا نزلت لهم عن باقي البلاد ولا أيضا يهجمون علي وأنا بها وهي بيتي ودار مقامي ، فكان يسيء التقدير ولا يقدر العواقب حتى سماه أعداؤه بالأبله.

لأنه ليس بذلك القائد الذي يقدر المصاعب والأهوال التي يعانيتها المسلمون بفعل ما هم فيه من خطر، فبمجرد أن استدعاه هولاءكو لعقد قران ابنه قام بجمع الهدايا النفيسة وذهب بها إليه ظنا منه أنه سيعفيه من العقاب، لكن تقديره كان خاطئا فبمجرد وصوله أصبح بيد عدوه ولم يكن له من القوة ما يجعله في مأمن لا هو ولا من كان معه من أفراد عائلته وبعض قواده وبعض العلماء الذين تركوا بغداد تواجه مصيرها بيدها وقد لاقوا من المغول أصناف من العذاب.

ومن سوء البلاء على هذه الأمة أن كل ما يحدق بها من أخطار لم يكفيتها لتجعل منه دافعا لوحدها ضد أعدائها بل زادت الخلفات العائلية بين ذرية خوارزم شاه الذي كان له من النساء العديد، فكثر نسله واتخذ كل واحد من عصبية أمه سنداً له على أخيه من أجل الفوز بعرش البلاد بعد أبيه، فهذا جلال الدين منكبرتي وأخيه غياث الدين شيرشاه قد وقع بينهما من العداء ما أشعل بينهما حرباً أتت على الأخضر واليابس وانتهت بفوز جلال الدين منكبرتي، لكنها تركت الجميع وقد أنهكت قواهم وتشتت مشاربهم واستغل عدوهم ما هم فيه من فرقة حتى قضى عليهم جميعاً.

لم يكن هذا الحدث هو الوحيد الذي كانت له نتائج وخيمة على البلاد بل زاد من ذلك تدخل تركان خاتور والدة السلطان محمود خوارزم شاه (غياث الدين) في تسيير شؤون الدولة لصالح فئة موالية لها على حساب الآخرين، حتى استبدت بالحكم وطغى نفوذها على الجميع بفعل العصبية التي أسست لها والتي كانت تدير شؤون العباد والبلاد وأصبحت تشكل خطراً على الدولة نفسها، وعندما تدخل السلطان محمد من أجل إرجاع الأمور إلى نصابها ووضع حد لهذا النفوذ الذي استأسدت به والدته، عمدت هذه الأخيرة إلى الإيعاز لأتباعها بالعصيان وزرع الفتنة وتخريب الأملاك، وبذلك دخلت الأم وابنها في صراع مرير أفقد الدولة قواها وهي التي كانت في أمس الحاجة إلى كل أبنائها.

4. حال المسلمين في ظل الحكم المغولي

يقول ابن الأثير في وصف حال المسلمين بعد سقوط بغداد بيد المغول معبراً في ذلك عن تلك المأساة: "قلو قال قائل أن العالم منذ أن خلق الله سبحانه وتعالى آدم وإلى الآن لم يبتلوا بمثلها لكان صادقاً، فإن التواريخ لم تتضمن ما يقاربها ولا ما يدانيها"، وذلك من شدة ما عاشه المسلمون من

د. طيبي عبد العالي / المسلمون والمغول أسباب الهزيمة وعوامل النصر

أصناف العذاب على يد المغول، فبعد ما استسلم الخليفة العباسي لهولاكو لم يكن للمسلمين أن يقاوموا من بعده، ذلك أن القادة والفقهاء وأهل الرأي كانوا قد انتهجوا طريق المعتصم نفسه تاركين البلاد للمغول يعيث فيها فسادا وخرابا لأكثر من أربعين يوما دمر فيها كل ما وقعت عليه يده.

سألت أحوال أهل بغداد وما حولها من بلاد الإسلام وضعفت عزائمهم وانهارت قواهم واستسلموا لعدوهم الذي نال منهم ومن كبريائهم حتى أصبح النفر منهم لا يقدر على رجل واحد من المغول، حيث يصور لنا ابن الأثير ذلك بقوله : أن رجلا من المغول دخل دربا فيه مائة رجل من المسلمين، فمازال يقتلهم واحدا واحدا حتى أفناهم جميعا ولم يمد أحد يده إليه بسوء، وفي حادثة أخرى يروي لنا كيف استطاع رجل من التتار لم يكن معه سلاح يستطيع به قتل المسلم فقال له: ضع رأسك على الأرض ولا تبرح، فوضع الرجل المسلم رأسه على الأرض حتى جاءه التتري بسيفه وقتله به.

ومن شدة هول ما عاناه المسلمون على يد المغول ظنّ البعض أن الإسلام لن تقوم له قائمة بعد الذي جرى لهم، وأن الأمر يكاد يكون من أشراط الساعة . وهذا ما يقع فيه الكثير من المسلمين باعتقادهم أن ما هو مقدر عليهم ليس لهم أن يعترضوا عليه أو يقوموا على تغييره على اعتبار أنه من قضاء الله وقدره.

5. كيف انتصر المسلمون على المغول

رغم اليأس الذي أصاب السواد الأعظم من الأمة بالعراق وإيران وجزء من بلاد الشام كان هناك من يرى عكس ما يراه الآخرون، ولم يزد ذلك الوضع الذي آلت إليه أمة الإسلام إلا إصرارا على دفع الأذى وبعث روح الجهاد في الأمة والتصدي لهذا الخطر الداهم الذي أصبح يهدد وجودهم بعد ما سقطت الخلافة ببغداد، وامتدت إلى بلاد الشام وهي الآن تطل على مصر، وحين أحسّ المسلمون بالخطر الداهم بدأ بعضهم يستنجد ببعض ويتحالف بعضهم مع بعض حتى يكون لهم من القوة والمنعة ما يمكنهم من صدّ هجوم المغول عليهم.

حينما داهم الخطر بلاد الشام استنجد صاحبها بالمماليك الذين لبّوا نداء إخوتهم وسارعوا لنجدتهم مدركين بذلك أن عدم نصرته إخوانهم هو خطر عليهم، رغم الخلافات التي كانت قائمة بينهم والتي كان سببها صاحب الشام الذي استنجد في وقت سابق بالمغول بعد سقوط بغداد من أجل مساعدته على غزو مصر وضمها إليه، لكن وضوح الرؤية لدى المماليك الذين كانوا يرون في زحف المغول على الشام خطرا عليهم لا يمكنهم معه إلا الخروج لنجدة إخوانهم، متغاضين بذلك عن الخلافات التي

د. طيبي عبد العالي / المسلمون والمغول أسباب الهزيمة وعوامل النصر

كانت قائمة بينهم، والتي يمكن تجاوزها بتقديم هذه المساعدة، فتنازل الملك قطز لصاحب الشام الذي كانت ما تزال لديه بعض الوسواس تجاه المماليك، بحيث منحه حرية الاختيار في قيادة الجيش قائلاً له: إن اخترتني خدمتك، وإن اخترت قدمتك ومن معي من العسكر نجدة لك على القادم عليك، فإن كنت لا تأمن حضوري سيرت لك العساكر صحبة من تختاره، فكان هذا بمثابة صك الأمان بالنسبة لصاحب الشام.

6. عوامل النصر

1-6 وحدة الصف الإسلامي

عندما اشتد خطر المغول على أهل الشام لم يكن هناك من بدّ غير توحيد صفوف المسلمين لدرء هذا السيل الجارف بعكس ما كانوا عليه من تشرذم في السابق حين انهارت بغداد، فمع أولى الإشارات التي أرسل بها أهل الشام للمماليك من أجل نجدتهم كانت الاستجابة فورية ودون أي تماطل يثير الريبة أو الشك، لأن الوقت وقت تصالح ونصرة وليس وقت الخوض في الخصومات وهو ما قام عليه المماليك بتجهيز الجيوش وإعداد العدة والخروج لقتال التتار في معركة عين جالوت.

2-6 الأخذ بأسباب الحرب

عندما قام المماليك بنجدة أهل الشام لم يكن ذلك اعتباطاً أو تسرعاً بل كان ذلك بُعد نظر، حيث أخذوا بأسباب الحرب حين اجتمع الأمراء وأهل الرأي والقادة والفقهاء لتدارس السبل التي يمكن من خلالها مجابهة العدو والتي كان بينها:

1- عدم انتظار العدو داخل الديار لتجنيب الأهالي تبعات غزو المغول الذين كانوا يتصفون بسفك الدماء وتخريب الممتلكات، لذلك كان أول ما اتفق عليه هو أن يبادروا العدو خارج مصر وليس داخلها، وبذلك يجنبوا البلاد ومن بها ويلات الحرب.

2- الدفاع عن مصر يتطلب شحذ الهمم ورفع المعنويات، لذلك قام الملك قطز بتحريض الأمراء والقادة والعامة على الجهاد في سبيل الله، وضد خطر المغول الذين أنهوا الخلافة الإسلامية وسيصلون لا محالة إلى مصر، حيث قال لقادته: إني ما قصدت إلا أن نجتمع على قتال التتار، ولا يتأتى ذلك بغير ملك فإذا خرجنا وكسرنا هذا العدو، فالأمر لكم، أقيموا في السلطة من شئتم، فاستطاع بذلك أن يجمع الناس على فكرة الجهاد والتصدي للغزاة.

3- وبعد وضوح الرؤية في الذهاب للحرب كان لزاما على الأمة أن تختار قائدا يستطيع أن يلتف حوله الجميع وتكون له الكلمة العليا والنافذة على الجميع، ولأن الملك المنصور ابن المعز ملك مصر كان صغير السن ولا يستطيع أن يقود جيش المسلمين، كان الاختيار على الملك قطز الذي أبلى البلاء الحسن واستطاع أن يقود الأمة إلى نصر عظيم.

2- 6 الدور الفعال للعلماء:

بدعوته لأهل العلم يكون القائد المملوكي قد أصبح على حربه ضد المغول صبغة دينية يستطيع بفضلها شحذ الهمم والرفع من المعنويات، ففي الوقت الذي عقد فيه الاجتماع أبدت كل الأطراف برأيها في كيفية نجدة أهل الشام وكيف يكون أمر الحرب والأموال التي تنفق عليها، ورغم أن البعض كان يرى بعدم القدرة على صدّ العدوان المغولي كانت الكلمة العليا لأهل العلم وعلى رأسهم العالم الجليل العز بن عبد السلام ، الذي أنهى الأمر بكلمة الجهاد مبينا في ذلك أن نصرة المسلم لأخيه واجبة متى ما دخل العدو لديار المسلمين، حيث قال: إذا طرق العدو البلاد وجب على الناس قتاله. وحينما احتاج القائد قطز للمال من أجل نفقات الجيش كان للعز بن عبد السلام الكلمة الفصل في ذلك، حيث منع جمع المال من عامة الناس إلا بعد أن تفرغ خزانة بيت المال ويدفع الأمراء والأثرياء نصيبهم وحينها فقط يكون على العامة واجب المشاركة في دفع المال، وقد استحسّن الناس ذلك وأقبلوا بما لديهم حين علموا أن ذلك مقرر على الجميع دون استثناء، يقول العز بن عبد السلام في أمر جمع المال من أجل قتال المغول: وجاز للسلطان أن يأخذ من أموال التجار وأغنياء الناس، ما يستعان به على تجهيز العسكر، لدفع العدو، لكن بشرط أن لا يبقى في بيت المال شيء من السلاح والسروج والذهب والفضة.

ولم يقف دور العلماء هنا بل كانوا صارمين بحق الخونة والذين تعاونوا مع المغول على حساب إخوانهم من المسلمين، وبذلك وضعوا حدا لخطر العمالة للعدو والتي كان بعض حكام المسلمين يقومون عليها، ومن ذلك ما قام به صاحب الموصل الذي ساعد التتار في حصارهم لبغداد بتقديم الإمدادات لهم خوفا على نفسه منهم ومصانعتهم لهم ، فأقام الفقهاء على إصدار فتوى تجيز للحاكم قتل العملاء والخونة من المسلمين، وهو الأمر الذي جرى على صاحب الكرك الذي تعاون مع المغول.

د. طيبي عبد العالي / المسلمون والمغول أسباب الهزيمة وعوامل النصر

يبقى أن نقول بأن المسلمين لم يعتبروا من التاريخ ولم يتعضوا بما كان فيه من ويلات على المسلمين الذين ظنوا بأن الأمة إلى زوال، فالأحداث توالى والتاريخ أثبتتها والأمة ما تزال في غيبوبة لا تكاد تفيق من واحدة حتى تأتي الثانية وهكذا دواليك، والقيادة الحكيمة هي التي تصنع الفارق في النهوض بالأمة، والانتماء هو الذي يوحد الناس، وإحياء روح الدين في النفوس هو الذي يقوي العزائم، والأمة الإسلامية لديها من مقومات الوجود ما تستطيع أن تكون به في مصاف الأمم والحضارات.

الخاتمة

إن دراسة التاريخ تعمل على استحضار الماضي بما فيه من إيجابيات وسلبيات ثم استخلاص العبر من كل ذلك، والأمة الإسلامية جزء من هذا التاريخ الذي مرت فيه بمحن ومشاق كبيرة كادت في أحيان كثيرة أن تزيلها من الوجود لولا أن إرادة الله كانت أقوى، وفي هذه الدراسة التي تطرقت فيها لأهم الأحداث التي عاشها المسلمون في القرن السابع الهجري مع غزو المغول للبلاد الإسلامية وإسقاط الخلافة الإسلامية، خرجت بالنتائج التالية:

- ما كان للمسلمين أن تقوم لهم قائمة بعد سقوط الخلافة العباسية إلا لما أخذوا بالأسباب .

- توحدهم ونبذهم للصراعات الداخلية والفتن التي تفرق أكثر ما توحد، جعل في وحدتهم قوة وفي قوتهم بقاء لكيانهم الذي يتربص به الأعداء من كل صوب، وقد رأينا كيف ساءت أحوال المسلمين عندما تنازعوا فيما بينهم وقد تشتت قواهم واستغل أعداءهم هذا الضعف فقصوا عليهم، ثم كيف استعادوا عافيتهم واسترجعوا ما كان بأيديهم عندما توحدوا.

الإيمان بأن العدو مهما كان له من القوة لا بد له من نقاط الضعف لذلك وجب على المسلمين البحث عنها واستغلالها كما فعل الملك قطز حين استبق العدو وقاتله خارج ديار المسلمين الذين كان الغالبية منهم يرون في قتاله عبث وإزهاق لأرواح المسلمين على اعتبار أن العدو أكثر قوة وأشد بأسا في الوقت الذي كان فيه المسلمون في هوان وضعف، لكن الأخذ بالمسببات جعل الكفة في صالح المسلمين الذين هزموا المغول الذين عرفوا بأنهم القوة التي لا تقهر، فكانت هذه الهزيمة بداية لتراجع نفوذهم وسقوط هيبتهم ووضع حد لزحفهم في حين عادت للدولة الإسلامية قوتها وهيبتها ووحدتها وثقتها بنفسها.

د. طيبي عبد العالي / المسلمون والمغول أسباب الهزيمة وعوامل النصر

في الأخير يمكن القول بأن هذه الأمة كلما اجتمعت وتوحدت هابها الجميع ولا يمكن لها أن تجتمع إلا بدين وهو الكفيل بأن تبلغ به الأوج، فإذا ابتعدت عنه أكل بعضها بعضا وسهل على عدوها أن يهزمها.

قائمة المصادر والمراجع

- أبي الحسن علي بن أبي الكرم محمد بن محمد بن عبد الكريم بن عبد الواحد الشيباني المعروف بان الأثير، الكامل في التاريخ، مراجعة وتصحيح: محمد يوسف الدقاق، ط4، دار الكتب العلمية، بيروت لبنان 2003

- أبي الفرج عبد الرحمان بن علي بن محمد بن الجوزي، المنتظم في تاريخ الملوك والأمم، تحقيق: محمد عبد القادر عطا و مصطفى عبد القادر عطا، ط2، دار الكتب العلمية، بيروت لبنان 1995

- أبي العباس أحمد القلقشندي، صبح الأعشى، دار الكتب المصرية، القاهرة 1922

- جمال الدين محمد بن سالم بن واصل، مفرج الكروب في أخبار بني أيوب، تحقيق ومراجعة: حسن محمد ربيع و سعيد عبد الفتاح عاشور

- شمس الدين محمد بن احمد بن عثمان الذهبي، العبر في خبر من غبر، تحقيق وضبط: أبو هاجر محمد السعيد بن بسيوني زغلول، ط1، دار الكتب العلمية، بيروت لبنان 1985

- شمس الدين محمد بن أحمد بن عثمان الذهبي، تاريخ الإسلام ووفيات المشاهير والأعلام، تحقيق: عمر عبد السلام التدمري، ط1، دار الكتاب العربي، بيروت لبنان 1999

- شمس الدين محمد بن أحمد بن عثمان الذهبي، سير أعلام النبلاء، تحقيق: بشار عواد معروف و محيي هلال سرحان، مؤسسة الرسالة، بيروت 1985

- صلاح الدين خليل بن أيبك الصفدي، الوافي بالوفيات، تحقيق: أحمد الأرناؤوط و تركي مصطفى، ط1، دار إحياء التراث العربي، بيروت لبنان 2000

- عبد الرحمان بن خلدون ، ديوان المبتدأ والخبر في أخبار العرب والبربر ومن عاصرهم من ذوي الشأن الأكبر، ضبط ومراجعة: خليل شحادة و سهيل زكار، ط1، دار الفكر للطباعة والنشر والتوزيع، بيروت لبنان 1981

د. طيبي عبد العالي / المسلمون والمغول أسباب الهزيمة وعوامل النصر

- عبد الرحيم الأسنوي جمال الدين، طبقات الشافعية، ط1، دار الكتب العلمية، بيروت لبنان 1987
- عماد الدين أبي الفدا إسماعيل بن عمر بن كثير، البداية والنهاية، تحقيق: عبد الله بن عبد المحسن التركي، ط1، هجر للطباعة والنشر والتوزيع والإعلان، الجيزة 1998
- عبد الملك بن حسين بن عبد الملك الشافعي العاصمي المكي، سمط النجوم العوالي في أنباء الأوائل والتوالي، تحقيق: عادل أحمد عبد الموجود وعلي محمد معوض، دار الكتب العلمية، بيروت 2015
- كامل بن حسين بن محمد بن مصطفى الحلبي، نهر الذهب في تاريخ حلب، المطبعة المارونية، حلب (دت)
- محمد بن أحمد ابن إياس الحنفي، بدائع الزهور في وقائع الدهور، تحقيق: محمد مصطفى، دار النشر فرانز شتاينر، بيروت 1975
- محمد بن علي بن محمد المعروف بالعمرائي، الأنباء في تاريخ الخلفاء، تحقيق: قاسم السامرائي، ط1، دار الأفاق العربية، القاهرة 1999
- محمود مقديش، نزهة الأنظار في عجائب التواريخ والأخبار، تحقيق: علي الزواوي و محمد محفوظ، ط1، دار الغرب الإسلامي، بيروت لبنان 1988
- أحمد معمور العسيري، موجز التاريخ الإسلامي منذ آدم عليه السلام إلى عصرنا الحاضر، ط1، مكتبة الملك فهد الوطنية، 1996
- حسين ابن محمد ابن الحسن الديار بكري، الخميس في أحوال أنفس نفيس، ط1، مطبعة الفقير عثمان عبد الرازق، القاهرة 1302
- خير الدين الزركلي، الأعلام قاموس تراجم لأشهر الرجال والنساء من العرب والمستعربين والمستشرقين، ط15، دار العلم للملايين، بيروت 2002
- راغب السرجاني، قصة التتار من البداية إلى عين جالوت، ط1، مؤسسة اقرأ للنشر والتوزيع والترجمة، القاهرة 2006
- سليمان بن حمد العودة، كيف دخل التتار بلاد المسلمين الأدوار الخفية في سقوط الخلافة العباسية، ط2، دار طيبة للنشر والتوزيع، الرياض 1997
- عبد السلام عبد العزيز فهمي، تاريخ الدولة المغولية في إيران، دار المعارف، القاهرة 1980

د. طيبي عبد العالي / المسلمون والمغول أسباب الهزيمة وعوامل النصر

- علي محمد محمد الصلابي، السلطان سيف الدين قطز ومعركة عين جالوت، ط1، مؤسسة اقرأ للنشر والتوزيع والترجمة، القاهرة 2009
- علي محمد محمد الصلابي، المغول التتار بين الانتشار والانكسار، ط1، الأندلس الجديد، مصر 2009
- غريغوريوس أبي الفرج بن أهرون المعروف بابن العبري، تاريخ مختصر الدول، تصحيح وفهرسة: أنطوان صالحاني اليسوعي، ط2، دار الرائد اللبناني، لبنان 1994
- محمد سهيل طقوش، تاريخ المماليك في مصر وبلاد الشام 648-923هـ/1250-1517م، ط1، دار النفائس للطباعة والنشر والتوزيع، بيروت لبنان 1997
- ويل وإيريلديورانت، قصة الحضارة، ترجمة: محمد بدران، دار الجيل للطبع والنشر والتوزيع، بيروت (دت)